السيكلوجية الحديثة

التحليل النفساني — تقدير عام

ليعقوب قوام

لقد امعنا في نقد نظريات فرويد حتى انهُ قد يتبادر الى ذهن البعض اننا لا نرى عليها مسحة من الحق والصواب ، والواقع بخلاف هذا على خط مستقيم ، لاننا نزعم ان فرويد من اركان السيكلوجية الحديثة ، وان هذا العلم لا يستقيم لانسان مطلقاً قبل ان يدرس الفرويدية دراسة عميقة منظمة ويضعها في المكان اللائق بها بين المذاهب الاخرى

فكما ان النظرية المسلكية فتحت امامنا الابواب لتربية اطفالنا ، وبينت لنا الطرق التي نتحكم بها في تصرفات الافراد ، كذلك اعانتنا سيكلوجية فرويد على فهم مشكلات الفرد النفسية ، ونشوء التعقيدات في الحياة العقلية ، وكيف نتجنب كل هذا قبل ان يحدث ، ثم كيف نعالجهُ بعد ان يصاب بهِ الانسان

***

قلنا في مقالاتنا السابقة ان التحليل النفساني نبت في الاصل في ميدان الطب ، اي انهُ ظهر على انهُ علاجٌ لبعض الامراض المعينة التي لم تنجع فيها الادوية والعقاقير لانها لم تكن تتصل باعضاء الجسم او بوظائف تلك الاعضاء ، وانما هي عقد ومشكلات نفسية انتابت نفس الانسان فافقدته توازنهُ وجعلت سلوكه مغايراً لسلوك الآخرين ، مغايرة جعلت الناس ينظرون الى ذلك الفرد على انهُ غريب عنهم في تفكيره ، لاينظر الى الاشياء كما ينظرون ولا يستجيب لها كما يستجيبون ، بحيث ان الفرق بينهُ وبينهم لم يكن يعتبر لمزية له بل لنقص فيهِ ، وبحيث ان الناس لا يستريحون الى الجلوس اليهِ ولا هو يستريح الى الحديث معهم ، هو يظن بهم السوء ، ويحمل تصرفاتهم معهُ على غير محلها ، فكل حركة منهم تكون موجهة اليهِ بشكل من الاشكال ، وكل تصرف منهُ لا ينظرون اليهِ على انهُ تصرف انسان مالك لزمام نفسه يقصد ما يقول ويعني ما يفعل

شخصٌ هذه حالهُ كان من الصعب فهم اصل الداء فيهِ ، هل نشأ من اختلال في احد اعضاء جسمهِ ، او من عجز بعض تلك الاعضاء عن القيام بوظيفتهِ خير قيام ام هل مسَّهُ جن ، ام ارتجَّ

عليه نحه ، والمحرف عقله فصار بعيداً عن ان يفهمه الناس وبعيداً عن ان يفهم الناس ؟ ومم نشأ هذا المرض ؟ هل هو شيء وراثي مسطور في خلايا الجسم يظهر عند سن معينة ، او قد نشأ من الطعام ، او العمل او الاجهاد ؟ ثم كيف علاجه وما السبيل الى التغلب عليه ؟

***

ففضل التحليل النفساني على السيكلوجية الحديثة هو انهُ انار لها الطريق في هذا الموضوع بالذات. فوجهها الى السبب الاصلي في نشوء هذه الحالات النفسية المعقدة ، وكيف ان تعدد الدوافع والمنازع في النفسية الانسانية ، وتسابقها الى السيطرة والتفوق ، وكبتها بعضها لبعض ، واستعانة بعضها على البعض بالاوضاع الاجتماعية ، وعجز الانسان عن حفظ التوازن بينها مع مراعاته للعرف ولما تتطلبه منهُ الحياة الاجتماعية ، كيف ان جميع هذه العوامل مجتمعة تفقد الانسان توازنه العقلي ، فيصبح عاجزاً عن وضع كل شيء في موضعه من النظام النفسي ، ويفلت من يده زمام نفسه فتتوزع عواطفه ونوازعه ويعرض وتنتابه تلك الحالات التي قدمنا ذكرها

وبعبارة اخرى استطاع هذا المذهب السيكلوجي ان يفتح امامنا باباً واسعاً للاحتمالات . نعم قد يخطىء هذا المذهب في تشخيص حالة بذاتها ، قد يأخذ بأسباب وفروض بعيدة الاحتمال متعذرة الوقوع لسبب من الاسباب ، قد يزعم ان الاصل في مرض هذا الفرد شيء معين ، وقد يكون هذا ابعد الاشياء عن ان يكون السبب الحقيقي لمرض ذلك الفرد ، ومع ذلك فان الاتجاه العام لهذه النظرية في تشخيص الامراض النفسية اتجاه سليم قريب من الصواب القرب كله ان لم يكن هو عين الصواب ، وبعبارة اخرى ان التحليل النفساني كشف لنا عن حقيقة ثابتة وهي ان منشأ العقد النفسية انما يكون من الالتواء في النوازع والاختلاط في المشاعر ، وان حوادث معينة في حياة ذلك الفرد هي السبب الاصلي في هذه المشكلات النفسية

***

لقد كشفت هذه النظرية عن اصل الداء بوجه عام ثم تقدمت بالعلاج الصحيح بوجه عام ايضاً. صحيح انها تزعم ان الاصل في هذه الامراض انما هو المسائل الجنسية وصحيح ايضاً اننا نختلف معها في هذا ، ولكنه صحيح ايضاً انها سعت الى الداء في منبت الداء ، اي انها دخلت الى قرارة النفس لتكشف عن علل النفس ، فهي قد اتجهت الاتجاه الصواب وان كانت اخطأت في بعض التفصيلات بعض الخطأ لا الخطأ كله

ذلك لاننا مهما حاولنا لا نستطيع ان نقلل من خطر المسائل الجنسية في حياة الفرد ، لا بل قد نغلو نحن في ثورتنا على هذه النظرية فنقع في شر مما وقعت فيه ، اي اننا نذهب من النقيض الى النقيض فنتعامى عن خطر هذه المسائل في حياتنا جميعاً ، فالاصل في العقد السيكلوجية مشكلات نفسية قد

تكون جنسية قبل ان تكون شيئاً آخر فلا نستطيع ان نعطي حكماً عاماً شاملاً ينطبق على جميع تلك المشكلات ، وانما نستطيع ان نبحث كل حالة بحالتها ، وقد نرى اثر المشكلات الجنسية في كثير من الحالات وقد لا نجد لها هذا الاثر في غيرها

وملخص القول في هذا ان هذه النظرية قد خدمت السيكلوجية الحديثة خدمة جليلة . خدمتها في الاتجاه العام الذي اتجهته للكشف عن الاسباب والعلل . ثم خدمتها في توكيدها للمسائل الجنسية ، التي كدنا ان نتعامى عن أثرها تشيأ مع الاوضاع الاجتماعية ، الى حد غير معقول

***

لم تقف خدمة هذه النظرية عند حد الكشف عن الاسباب المباشرة في المشكلات النفسية وانما تقدمت اينما رأي في علاج هذه الحالات . علاج أقل ما يقال فيه انهُ صواب في اتجاهه العام ، وان كان خاطئاً في بعض الحالات بذاتها . وشأن فرويد في هذه المسألة شأن الطبيب الذي يفحص المريض ، ويشخص المرض ويعطي الدواء . قد يخطيء هذا الطبيب في تشخيص المرض وقد يخطيء في وصف الدواء ، ومع هذا كله وبرغم هذا كله فالنظرية الطبية سليمة في اتجاهها العام ، سليمة في فلسفتها ؟ وان كانت تخطيء في التفصيلات

اذا اختلطت الغرائز النفسية في الانسان ، فقد توازنه الى حدٍّ معين ، وأصبح عاجزاً عن ان يأخذ بزمام هذه الغرائز والدوافع ويوجهها الى مصلحة الكائن كله ، وبمعنى آخر يخرج الأمر في نفسه عن ارادته فيتصرف بنفسه تصرف انسان غير مسئول من جهته وعاجز عن توجيه مشاعره توجيهاً منظماً مقصوداً يرمي الى غاية معينة ، ولا يهم سواء أكان هذا العجز عاماً ام مقصوراً على ناحية بذاتها من نواحي النفس

هذا الانسان بالطبع مصاب بمرض نفسي ، ووظيفة السيكلوجية ان تكشف عن أصل الداء ، ثم تحصره في دائرته ، وتبين موطنه على التحقيق ، وبعد ذلك تتقدم بالعلاج . فالنظرية التحليلية (الفرويدية) تزعم ان منشأ الداء او موطنه هو المسائل الجنسية في معظم الحالات ونحن بالطبع نعترض على هذا ونزعم ان منشأه قد يكون شيئاً آخر

ثم تصف الفرويدية الدواء على هذا الوضع . من حيث ان الاصل في الداء هو اصطدام الدوافع الجنسية بالاوضاع الاجتماعية ، ولما كان الفرد يسقط أمام هذه التجربة ويستكين ويغلب على أمره ، فالمشكلة لا تنشأ من السقوط وانما تنشأ من الشعور الحاد بالذنب وبالخطيئة وثبات الانسان على هذا الشعور واستمراره في التشبث بهذا الاحساس — الاحساس بالخطيئة — وأخذه نفسه باللوم والتعنيف ، واحساسه بأنه هالك لا محالة وان السماء والارض تألبتا عليه — هذا الاحساس في مجموعه هو منشأ الداء وليس الاستجابة للغريزة الجنسية نفسها

ولعبارة اخرى تزعم هذه المدرسة ان الاوضاع الاجتماعية والخلقية والدينية تضغط على نفس الانسان وتقف في وجه هذه النفس فتزحزحها عن موضعها وتحدث خللاً في توازنها وتفقدها الثقة والاطمئنان بأنها مثل باقي النفوس الآدمية ، والعلاج في هذه الحالة بالطبع يكون في إرجاع الثقة الى النفس وفي تمكينها من استرجاع توازنها والاطمئنان الى انها بخير وانها تستطيع ان تتصرف في شؤونها مثل النفوس الأخرى

***

بغض النظر عن الخلافات في المسائل الجنسية فان التحليل النفساني فتح لنا باب العلاج على مصراعيه ، فأصبح من السهل على كل مدرسة ان تتبع وسائلها في العلاج ، والوسائل جميعها متشابهة وهي الوصول بالمريض الى حالة معها يرى الداء كما يراه الطبيب ، يراه على حقيقته من غير التواء او تشويش في التقدير والحكم . يراه على حقيقته لا كما كان يراه بعين المريض المضطرب المشوش التفكير الموزع القوى

هذه النظرة في ذاتها نظرة سليمة بغض النظر عن منشأ الداء وهل هو من الغرائز الجنسية او من غيرها . المهم في الأمر ان ينظر المريض الى دوافعه النفسية نظرة سليمة ، عاقلة لا تشوبها الاضطرابات النفسية ، فاذا كان سبب الداء حادثة معينة تغيب عن عقله ، يحسن به ان يعرف تلك الحادثة والاحوال المحيطة بها جميعاً ، واثر هذه الحادثة في اضطرابه النفساني

وهنالك خدمة اخرى قدمتها نظرية التحليل النفساني للسيكلوجية في مجموعها وهي انها كشفت لنا عن السبيل الى تجنب الارتباكات النفسية اذا ما اهتم المربون بالتطور النفسي في اطفالهم ، فجموا هؤلاء الاطفال من الاختبارات القاسية الشديدة التي تترك اثراً عميقاً في زوايا النفس ، كأن يعرضوا لما لا قبل لهم باحتماله من الاضطرابات النفسية ، كالخوف الشديد ، او الحزن العميق المكتوم ، او التعرض للحوادث الجسام التي قلما تمضي دون ان تترك وراءها آثاراً لا تمحى

***

وملخص القول ان النظرية التحليلية قدمت للسيكلوجية ثلاث حقائق مهمة لهذا العلم

(١) كشفت عن العلة في كثير من الامراض النفسية ، ووجهت السيكلوجية الوجهة الصحيحة في هذا الميدان

(٢) تقدمت بعلاج نافع لبعض تلك الحالات فتقدم العلم خطوات واسعة في هذه الناحية

(٣) اعانتنا الى حد كبير في الكشف عن طرق الوقاية من بعض الامراض النفسية